

محمد حسنين هيكل السقوط في جب التحيز

تحدث الأستاذ هيكل في باريس حديثاً مطولاً عن مصر والعالم العربي، تعرض فيه بالنقد لشعار "الإسلام هو الحل"، الذي رفعه الإخوان المسلمون. وفي السطر الأول من كلامه عن هذا الشعار رفضه رفضاً باتاً. وقال: إن "الإسلام ليس الحل"؛ ونحن هنا نريد أن نرى ما في كلامه من الحق والباطل، والصواب والخطأ، بموضوعية، ودون تحيز. ولا أمل عندي في إقناع هيكل، وإنما أريد أن أضع الحقائق بين يدي القارئ المسلم، طالما أن كلام هيكل قد نشر في مصر على أوسع نطاق، مع هالة من التعظيم لشخصه ولآرائه.

نص كلامه:

ولكى يشاطرنى القراء النظر والرأى سأضع نص كلامه حرفياً بين أيديهم، وبعد ذلك نشرع في مناقشته.

يقول الأستاذ هيكل: "اعتقادی أنه في مصر، وفي غير مصر من بلدان العالم العربي، أن "الإسلام ليس هو الحل"، وإنما هو النور والهداية التي يمكن أن ترشد إلى مواطن الحل. واعتقادی أن الإسلام - شأنه شأن كل دين مقدس - ضياء يغمر هذا الكون، ومن ثم يهيئ للعقل الإنساني ممارسة حقه في اختيار الحل، أقصد أن الشريعة الإسلامية - وكل شريعة دينية - لم تفرض سلفاً على المجتمعات كيف تدير علاقاتها مع غيرها، ولا كيف تدير أمورها الاقتصادية والاجتماعية، ولا كيف تحقق العدل والحرية والمساواة في الفرص لأهلها، ولا كيف تستطيع تحصيل العلوم وامتلاك التكنولوجيا. وإنما الدين - كل دين - نور يضيء طريق المؤمنين به حتى يختاروا بإرادتهم الحرة ما يرون في تلك المجالات وغيرها، ثم يكون حسابهم أمام خالقهم على استعمال عقولهم أو تعطيلها."

هذا هو النص الأساسى فى كلامه عن شعار "الإسلام هو الحل" ، وتيسيراً على القراء أحدد القضايا التى يثيرها هنا :

(١) هو أولاً ينفى أن يكون فى الإسلام أى حل لأية مشكلة من أى نوع كان، من تلك التى تواجه مصر؛ بل هو يعمم حكمه ليشمل العالم العربى كله، ربما لأن شعار "الإسلام هو الحل" ، قد انتشر فى العالم العربى؛ فهو يوسع من نطاق النفى ليشمل الرقعة نفسها، فيكون شعاره ضد شعار التيار الإسلامى وعلى مقاسه الجغرافى!

(٢) وهو ثانياً يقرر أن الإسلام مثل أى دين آخر، لا يزيد عن أى دين شيئاً؛ يعنى مثل اليهودية والمسيحية والبوذية والهندوكية . والشريعة الإسلامية مثل أية شريعة دينية أخرى، لا تمتاز بشيء ولا تتميز بشيء . وهو يؤكد هذا المعنى ويكرره ثلاث مرات فى هذه الفقرة .

(٣) وهو يقرر أن الإسلام هو النور والهداية التى يمكن أن ترشد إلى مواطن الحل بأية مشكلة . ومن الجلى أن "النور" هنا يستخدم مجازياً؛ كما أن طبيعة "الهداية" ، لم تحدد؛ فلم يذكر مثلاً أنها قيم أخلاقية، أو مثل عليا، أو عقائد دينية، أو شريعة ونظم وقواعد . كذلك لم يحدد هيكل الحل، وهل هو نظريات فلسفية أو نظم بشرية وضعية رأسمالية أو اشتراكية، أو غير ذلك .

(٤) والإسلام عند هيكل ضياء يغمر هذا الكون، ومن ثم يهين للعقل الإنسانى ممارسة حقه فى اختيار الحل، وهو يشرح هذا فيقول إنه لم يفرض على المسلمين كيف يديرون مواردهم؛ يعنى الشريعة لا تفرض واجبات أو قواعد لاستثمار موارد الأمة وإدارة مآلتها؛ ولا بينت لهم كيف يمكن تحقيق العدل!

(٥) والإسلام كإى دين آخر يضىء الطريق للمؤمنين به لكى يختاروا بإرادتهم الحرة ما يشاءون .

(٦) وسوف يحاسب الله الناس على تعطيل عقولهم أو تشغيلها .

● ونحن نأخذ عليه أنه ينفى أن يكون الإسلام هو الحل تعسفياً، أى بدون براهين من أى نوع . وكان عليه، إن أراد التزام مناهج الكتابة العلمية الرصينة، المنقعة،

أن يقدم لقراره أو سامعه قائمة بمشكلات مصر الأساسية، وأخرى بمشكلات العالم العربي، ثم يعرضها على الإسلام قرآناً وسُنّة، ويثبت أنه لم يجد حلاً لأية مشكلة منها. لو فعل ذلك لقدّم لنا علماً، وتحليلات علمية لها وزنها، لكنه للأسف لم يفعل، وبدأ بتقريراته، ونفيه، دون أن يورد دليلاً من أى نوع! وعلى هذا نقول: إن كلامه لا يعدو أن يكون مجرد مزاعم شخصية لا قيمة لها ولا وزن بمعايير المناهج العلمية. هي مجرد معارضة سياسية تعسفية للتيار الإسلامى من جانب رجل يعادى هذا التيار منذ خمسين عاماً، حين كان هو المبرر والمسوغ لاستبداد النظام الناصرى الشمولى وعدوانه المتكرر على أصحاب الشعار الذى يعارضه هيكل اليوم! وسوف نرى بعد قليل أن الإسلام هو حقاً وصدقاً الحل لمشكلات مصر والعالم العربى، وأنه قد حل، ويحل الكثير من هذه المشكلات، على الرغم من "الأخذ الجزئى" له فى مصر والعالم العربى والإسلامى.

إن الدين عند الله الإسلام:

والإسلام، على نقيض مزاعم هيكل، ليس مثل أى شريعة أخرى. فالإسلام دين يخاطب العقل، ويقنعه، ولا يلجأ إلى المعجزات؛ حتى الإسراء والمعراج المعجزة الكبرى لنبينا ﷺ، لم يكن المقصود منها إقناع الناس بصدق محمد؛ ولو أريد لها أن تكون كذلك لتمت نهاراً، لا ليلاً. من هنا وجدنا الإسلام يزدهر مع تقدم التعليم، فى حين تنهاوى الأديان الأخرى للسبب نفسه! والإسلام دين التوحيد المصفى، النقى، البرىء من كل شوائب التشبيه والتمثيل والحلول والتعدد والإثنية. ومن هنا كانت قدرته على مخاطبة المفكرين والمثقفين والعلماء المحدثين، فى حين تنتشر الفلسفات الملحدة بين غير المسلمين.

والشريعة الإسلامية ليست مثل أية شريعة أخرى، من حيث شمولها لكل جوانب الحياة البشرية، ورعايتها للعدالة الاجتماعية، وقدرتها على رعاية الطبقات غير العاملة، والفقيرة، وعلى استيعاب كل جديد فى حياة الأمة المسلمة عن طريق الاجتهاد استناداً للأصول القرآنية والحديثية. ونحن نسمع عن مشكلات الزواج والطلاق فى أوروبا وأمريكا، وكيف تمردت الشعوب على شريعة دينهم التى تمنع الطلاق وتعدد الزوجات، فاستعاضوا عنها بإباحية شاملة، امتدت إلى الزنا بالمحارم،

وإباحة فعل قوم لوط، وكل ضروب الزنا والبغاء؛ كما أن شريعتنا تخلو من أية تفرقة عرقية أو ثقافية ظالمة.

والشريعة الإسلامية تقدم للمسلمين دستوراً كاملاً، ونظاماً قانونياً شاملاً، وأخلاقيات وقيماً سامية، تضمن إنشاء مجتمع إنساني رفيع، راق، آمن، سعيد، يعبد الله تعالى ويأمل في جنته. وهي مطبقة جزئياً في حياتنا الراهنة؛ وكانت سرّاً من أسرار النجاح في هذه الحياة واستقرارها. فعلى هيكل أن يأتي ببرهان إن كان لديه برهان، على تساوى شريعتنا الغراء بالشرائع الأخرى، وهيهات أن يفعل!

النور والهداية:

والإسلام نور وهداية دون ريب، ولكن ليس بالمعنى المجازى المائع غير المحدد الذى أراده هيكل. الإسلام نور وهداية للمسلمين فى عقائدهم الدينية، وفى الشريعة السمحة العادلة، وفى أخلاق الإيثار النبيلة السامية. الإسلام نور وهداية يتجسدان فى تعاليم محددة، وشرائع، ونظم، وفضائل أخلاقية، تبين للمسلم كيف يفكر، وكيف يعبد ربه، وكيف يتعامل مع زوجته وأهله، وماله عليهم، وما لهم عليه، وكيف يتعامل مع الناس فى كل مجالات الحياة الاجتماعية والمادية والمالية، بحيث لا يظلم، وبحيث لا يُظلم، وبحيث يعرف الفرض والواجب والمندوب والمباح والمكروه والحرام، فى كل قول وعمل. وكل مشكلة تواجه المسلم لها الحل الشرعى السديد المحدد. والجماعة المسلمة، كالفرد المسلم، تجد الحلول لمشكلاتها الفكرية والاجتماعية والسياسية والثقافية والأخلاقية فى الكتاب والسنة؛ ولها الحق، بل عليها واجب الاجتهاد لمعرفة الحلول للمشكلات المستجدة، على أصول الإسلام. فالنور والهداية والضياء ليست كلاماً إنشائياً فى الإسلام، بل له معناه المحدد بكل دقة. ولذلك نرفض محاولة هيكل الإنشائية الخطابية هذه لتميع مفهومنا للإسلام وشريعته.

قضية العقل:

ولقد مس هيكل قضية العقل، ودوره، وصلته بالدين مساً سريعاً، وخاطئاً. والقضية قديمة متجددة؛ وفيها كتابات غزيرة وعميقة، منذ عهد الفلاسفة المسلمين القدماء كابن سينا والفرايى والغزالي وابن رشد، وقد أضاف المحدثون الكثير، ابتداءً من جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده، ثم المودودى والندوى وسيد قطب والعقاد

والرافعى، وغيرهم. والقضية هي: ما مصادر المعرفة؟ هل الوحي مصدر معترف به عند الكاتب أم لا؟ وعند التعارض بين العقل، أو (التجربة البشرية عامة) والوحي، لمن تكون الكلمة العليا؟ مثلاً، إذا زعم العلم الحديث أن الأحياء لا تتولد من الجمادات، وقال الإسلام إن الله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ﴾ (الأنعام: ٩٥) فمن نُصَدِّقُ؟ أو كيف نوفق بين المصدرين؟ هذه القضية الواسعة الكبرى، المتشعبة، والخطيرة، يدلى فيها الأستاذ هيكل بكلام خاطئ لا أصل له، ولا قيمة، ولا وزن، فيزعم أن الإسلام ضياء يهيب للعقل لممارسة حقه في اختيار الحل!

هذا مسلك مؤسف، ومُضلل! والعلم يرى منه؛ والفكر الموضوعى والتحليل المنهجي لا يجيزانه ولا يعترفان به. ثم يشرح الأستاذ هيكل رأيه فى الإسلام والعقل فيتورط فى أخطاء علمية وشرعية جسيمة. فلقد أفرغ الشريعة من كل مضامينها. فليس فيها - بحسب زعمه - قاعدة تفرض على المسلمين كيف يديرون علاقاتهم مع غيرهم من المجتمعات؛ وليس فيها قواعد لتنظيم كسب الثروة المالية وإنفاقها واستثمارها؛ وليس فيها مبادئ تحدد مفهوم العدالة أو تحدد نطاق الحرية؛ وليس فيها كلمة عن العلم والتقنية!

ولبيان مضامين الشريعة الغراء التى تكذب هذه المزاعم يحتاج المرء - دون مبالغة - إلى مجلدات! فالعلاقات الدولية فى الإسلام فيها مراجع عديدة، كلها تستند إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة. وربما كان كتاب الشيخ أبى زهرة رحمه الله فى الموضوع من أحدث ما كتب فيها. وأما الحياة الاقتصادية والمالية ففيتها مئات المصادر الحديثة والقديمة. وأنا شخصياً لى كتابان حول النظام الاجتماعى فى الإسلام؛ وهو نظام أساسه العدالة الاجتماعية، بمعنى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (النجم: ٣٨، ٣٩). والأخلاق بمعنى: العطاء بلا مقابل: ﴿إِنَّمَا نَطْعُمُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جِزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ (الإنسان: ٩). وهذه المبادئ تحققت، ولا تزال تتحقق، فى الحياة الاجتماعية للأمم المسلمة، وفى حياة الأفراد وسلوكهم. وهى مصدر كل سعادة، وحل لكل مشكلة، ومرجع للحكم فى كل قضية، ومعيار لحسم أى خلاف، وهى سرتماسك مجتمعنا على الرغم من كل عوامل الانهيار.

فمضمون شريعتنا السمحة بالغ السعة، والتنوع، والشمول، والعمق، وهي تغطي كل صغيرة وكبيرة في حياتنا. واحترامها يضمن لنا الرضا، والأمن، والقبول في المجتمع المسلم، والأمل في مرضاة الله تعالى في الآخرة. وانتهاكها أو تجاهلها يفجر المشكلات والمتاعب لنا. لكن الأستاذ هيكل لا يرى من هذه الثروة المهولة شيئاً، وينكر كل مضامينها، ليقول لنا إن الإسلام نور يضيء الطريق، وكفى! ترى، هل يخذعنا بهذه الألفاظ أم يخذع نفسه؟

ثم يقول إن الله تعالى سوف يحاسب الخلق على تعطيل العقل أو إعماله. ولكن كيف يحاسبنا الله تعالى بدون وجود قواعد تبين الحلال والحرام؟ وهل تعطيل العقل هو المعصية الوحيدة؟ إن أبالسة البشر جميعاً لا يعطلون عقولهم، فهل يدخلون الجنة بمجرد تشغيل العقول؟! ألا توجد عقيدة يحاسب من يفرط فيها، ويثاب من يؤمن بها؟ ألا توجد فروض ومندوبات ومحرمات في كل نواحي الحياة؟ ألا توجد عبادات، لها أصول وقواعد؟

عند الأستاذ هيكل لا ذكر لشيء من ذلك! الحساب أمام الله على "العقل" فقط! وهو لم يقل كلمة واحدة عن كيفية تشغيل هذا العقل، ولا عن القواعد والمناهج التي تحرره من الشهوات التي تسيطر عليه وتقصره على أن يتحدث باسمها!

قضية حرية الإرادة:

ويكتب الأستاذ هيكل سطرًا أو سطرين عن قضية الإرادة والحرية! وكلامه لا يكاد يبين! وكما هو معلوم لدارسي الفلسفة، تعد قضية الحرية من أعقد القضايا، بسبب تعدد مجالاتها، واتصالها بالقضاء والقدر، الجبر والاختيار؛ وكذلك على المستوى العملي الواقعي، تتصل بالنظام السياسي والاجتماعي والثقافي ومدى سعة مجالات الحرية الفردية فيه... إلخ

ومن الجلي أن الإدلاء برأى في هذه القضية يحتاج إلى مجال آخر أوسع من مجرد فصل في كتاب. ومع هذا نقول إن كلام هيكل خاطئ، فضلاً عن أنه قاصر. والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٣٦) فالمسلم اختار الإسلام؛ والإسلام معناه الطاعة لله ورسوله؛ فإذا أمر بعمل أتاه راضياً، وإن لم يكن قد اختاره؛ وقد يكون يشتهي

الأ يعمله، أو يعمل ضده، لكنه يستجيب لأمر الله ويطيعه، ولا يرى في هذا إلا الخير.

الإسلام هو الحل لهذه المشكلات :

(١) مشكلة الازدواجية الثقافية :

والآن نستعرض بعض المشكلات الكبرى التي تواجهنا والتي يحلها الإسلام، ولا يحلها أى نظام علمانى . ولعل أخطر المشكلات تتمثل فى " الازدواجية الثقافية " التناقضية، التى شقت صفوفنا إلى أمتين متعارضتين : أمة مسلمة، تأخذ بالإسلام كاملاً شاملاً، وأمة علمانية ترفض الإسلام، أو تقبل منه عناصر لا ترى فيها تعارضاً مع مذهبها العلمانى وترفض كل ما عداها . والحل هو تصفية الثنائية، وبلوغ الوحدة الثقافية (والتنوع داخلها) . وهذا يقتضى أحد أمرين : فإما أن ننحى الإسلام، وإما أن ننحى المذاهب العلمانية . وتنجية الإسلام شبه مستحيلة فى أمة مؤمنة به، ولا ترى له بديلاً بحال .

ثم إن الإسلام يتسع لكل مزايا النظم العلمانية، كالديموقراطية وحقوق الإنسان، والتقدم العلمى . وتكلفة تنحية الإسلام باهظة . ونحن الآن نرى تجارب عديدة فى مصر والجزائر . والدماء تسيل بغزارة، والأموال تهدر عبثاً، والاحتقان العام يتزايد مع كل محاولة لتقليص المضامين الإسلامية فى التربية والتعليم، أو المساس بالإسلام فى الإعلام والثقافة . فلا حل للثنائية إلا بالأخذ الكامل للإسلام، ونبذ كل ما يتعارض معه، ووضع حد للاجتزاء الخبيث الذى ينتقى عناصر ويجحد أخرى . ومن المؤسف أن أقول إن السياسات الراهنة تتجه إلى تصفية الإسلام، لا العلمانية . ولذلك أتوقع أن تزداد المشكلة حدة، لأن الدولة تتجه بقوة ضد إرادة الجماهير على مستوى النخبة وعلى مستوى العامة .

(٢) مشكلة التبعية :

ويتصل بالمشكلة السابقة مشكلة أخرى هى مشكلة التبعية القومية والوطنية، وضياع الاستقلال . وهيكلك نفسه يشكو من تبعية البلاد لأمريكا؛ ولم يقدم حلاً .

والتمسك بالإسلام كاملاً هو الذى يضمن لنا الاستقلال فى الفكر والعمل جميعاً؛ إن اعتناق البراجماتية - أى الفلسفة الأمريكية النفعية - سيلحقنا بأمريكا نظرياً، ثم عملياً. وذلك خطر كبير، توجست منه دولة كبرى مثل فرنسا، وأعلنت الحرب عليه! وأمريكا لا تعترف إلا بمصالحها؛ وهى تملئ إرادتها على الأتباع، بدون مناقشة، كما قرر هيككل فى مقاله. وهذه الشركات العملاقة، العالمية، شرعت تسيطر على اقتصادنا، وتمتص دماءنا. ومسلك الأتباع، لا الحلفاء، فى المنطقة يشهد بأنهم ضيعوا استقلال بلادهم، فهم يحاربون بالأمر، ويسالمون بالأمر، ويبذلون بسخاء بالأمر، ويقبضون أيديهم بالأمر! والترتيبات تتخذ لإخضاع العالم كله لإرادة أمريكا تحت مسمى "الكونية"! والعمل يجرى على قدم وساق لاستبعاد العروبة والإسلام وإحلال كيانات جغرافية محلها، تسيطر عليها أوروبا وأمريكا وإسرائيل! ولا حل لهذه المشكلة إلا بالتمسك بالإسلام وعقيدته، وفكره، وتطبيق شريعته وأخلاقياته. والسعى للتكتل والتوحيد والتعاون مع الدول العربية والإسلامية. ولسوف نحترمنا أمريكا ساعتها، لأنها لا يمكن أن تخاطر بمصالحها عندنا.

(٣) المظالم الاجتماعية :

ونحن اليوم نعانى من مشكلات الفقر والمظالم الاجتماعية التى أطاحت بنسبة هائلة من شعبنا تحت مستوى الفاقة، وحولت نسبة أخرى كانت مستورة، أو معدودة من الأغنياء، إلى دائرة الفقر. وتلك نتائج تجريب الاشتراكية، ومن قبلها الليبرالية الملكية. ولولا إيمان الشعب بالإسلام، بما يفرضه من تكافل اجتماعى وعائلى، وزكاة، وصدقات، لانهار المجتمع المصرى ودمرته القلاقل. وهذه الحقيقة هى التى جعلت الخبراء العالميين يتعجبون من استمرار تماسك المجتمع المصرى، على الرغم من كل المشكلات الاقتصادية العاتية. وهيككل نفسه كتب هذا يوماً، ولم يدرك أن الإسلام هو الذى يعالج آثار المظالم والفشل الاقتصادى، وغياب العدالة الاجتماعية، على الرغم من رفض الدولة الأخذ الكامل الشامل له. فالعاطل والعاجز واليتيم يجدون النفقات الضرورية من الأهل والأرحام والمزكين المنفقين.

(٤) المخدرات ، من يحمينها ؟

والإسلام هو الذى حل مشكلة المخدرات وإدمان الخمر للذين يحترمون شريعته من بنى جلدتنا . بل إن أعداداً غفيرة من شباب الإسلام ترفض التدخين؛ وبعضهم لا يشرب القهوة والشاي، ويصر على تناول المشروبات الوطنية . وأحسب أننى لست بحاجة إلى القول إن مشكلة المخدرات وإدمان الخمر، والجريمة التى تتصل بهما، هى من أخطر مشكلات العالم المعاصر، وأعقدها . وهى تستنفد جهوداً طائلة واعتمادات مالية باهظة وتلحق أضراراً مهلكة بالأفراد والجماعات، صحياً وأمنياً؛ والعالم يقف عاجزاً إزاءهما . هذه المشكلة العظمى حلها الإسلام حين حرم الخمر والخبائث على المسلمين وبذلك نجا منها كل مسلم ملتزم بدينه . فهل ينكر هيكل هذه الحقائق؟ هل يستطيع أن يقول إن الإسلام ليس الحل لهذه المشكلة؟

لقد حلها الإسلام حقاً وصدقاً . وليس مجرد رهان على المستقبل . وهذا كفىل بإسقاط الزعم الرئيسى فى كلام هيكل؛ أعنى قوله: "الإسلام ليس الحل لأية مشكلة"، لقد حلَّ الإسلام بعض مشكلاتنا، من الباطن، أى بالعقيدة والأخلاق، لا "من الخارج" بالشرطة، كما يفكر الأوروبيون والأمريكيون، وقد لاحقهم الإخفاق . وهذا هو "ريمون كيندلا" سكرتير عام الإنتربول يستغيث لانتشال إدارات مكافحة المخدرات، من إدمان تلك المخدرات، التى تهدد المجتمع الدولى . وتشير إحصاءات الأمم المتحدة إلى أن تجارة المخدرات تبلغ ٤٠٠ مليار دولار سنوياً، حسب كلام "كيندلا"؛ وهذا البلاء العظيم يتسبب فى ٥٠٪ من الجرائم فى المدن الغربية الكبرى . (الأهرام: يوم ٢ / ١٠ / ١٩٩٥) ترى ماذا كان يمكن أن يلحق بنا من المصائب، نحن أبناء العالم الثالث، الأميين، الجهلة بكل التدابير الوقائية؟ من المؤكد أن الأخطار كانت ستكون أضعافاً مضاعفة . وقد حاقت مثل تلك الأخطار بدول العالم الثالث غير المسلمة وأهلكتها .

(٥) من يحمينها من الإيدز ؟

ثم نصل إلى مشكلة طاعون العصر، أعنى مرض نقص المناعة "الإيدز" وقد ذكرت مصادر طبية أمريكية يوم ٩ / ١١ / ١٩٩١ أنه بحلول عام ٢٠٠٠ سيكون فى

العالم حوالي ٤٠ مليون مصاب بالإيدز . وذكرت المصادر الطبية أن الدعارة تلعب دوراً كبيراً في نشر المرض . وتقول المصادر الرسمية إن الفوضى الجنسية هي سبب الانتشار الوبائي للإيدز، لأن ٨٣٪ من حالات العدوى ترجع إلى الشذوذ الجنسي والبيغاء والجنس الحرام والفحشاء .

ومن الملاحظات البارزة أن المرض محدود الانتشار بين المسلمين بسبب انضباطهم الأخلاقي . فإفريقيا جنوب الصحراء يحصدها الوباء؛ في حين أن شمال إفريقيا يعد من أقل مناطق العالم إصابة بهذا الوباء . أي أن الإسلام بعقائده وشرائعه وأخلاقياته هو السد المنيع الذي يحمي أمته من ذلك الوباء . فهل ينكر هيكل أو غيره هذه الحقيقة ؟!

● هذه عينة من المشكلات التي حلها الإسلام فعلاً، على الرغم من التطبيق الاجتزائي المشوه له، الأمر الذي يحبط مفعوله إلى حد كبير . وأظن أن هذه العينة كفيلة بدحض افتراءات هيكل وبيان تهاافت مزاعمه ضد شعار "الإسلام هو الحل" و"الإسلام حياة كاملة" .

* * *

الدكتور طه حسين وخيالاته الجامحة

حديث إفسك

الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي، ورائد الفكر المصرى الحديث فى القرن العشرين. وكلما مرت ذكرى وفاته تحدث عنه أتباعه والمعجبون به فرفعوه إلى أعلى عليين. وأنا هنا لا أريد المساس بمكانته ولا بعمادته، ولا أبتغى إنزاله من عليائه. كل ما فى الأمر أنه فى بعض مؤلفاته تحدث عن أخلاقيات أبناء الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وعن أخلاق حجاج بيت الله الحرام حديثاً منكرًا باطلاً، فوجبت مناقشته.

فى كتابه "حديث الأربعاء" الذى نشرته دار المعارف المصرية، وكان مجموعة مقالات نشرت فى الصحف قبل ذلك، أعلن الدكتور طه حسين أنه يدرس طائفة من الشعراء فى العصرين الأموى والعباسى، اختارهم من الفُجَّار المُجَّان دون سواهم. وهو يلخص صورة ذلك العصر فيقول: "إنه عصر شك (فى الدين) وعبث ومجون. أو كان الشك والعبث والمجون أظهر مميزاتة"^(١) ثم قرر أن دراسته: "لا تكاد تتجاوز ناحية بعينها من نواحي هؤلاء الشعراء جميعاً، هى ناحية مجونهم وإسرافهم" وهو يصفهم بأنهم: "هم أصحاب المجون والدعابة وطلاب اللهو واللذة"^(٢) فهو يستبعد كل الشعراء الجادين الكبار والصغار. ويركز دراسته على أهل المجون والفجور واللهو والعبث. وهو يغفل الشعر الجاد لهؤلاء المجان أيضاً، ولا يهتم إلا بما قالوه فى المجون والفجور واللهو. وبعد هذا الانتقاء وهذا الاجتزاء الصريح يقول الدكتور: "إن هذا هو المنهج العلمى الذى يصور ذلك العصر على ما كان عليه"^(٣).

ومن الجلى أن هذا المنهج الاجتزائى الانتقائى لا يمكن أن يصور ذلك العصر على حقيقته. فإن الانتقاء يضاد الصورة الشاملة الصادقة التى تضم كل الظواهر فى

(٢) نفسه.

(١) ج١ ص ٧ ط ١٢.

(٣) نفسه ص ٨.

عصر من العصور. وسوف نرى مقدار الخطأ في هذا المنهج حين نضم الظواهر الإيجابية إلى الظواهر السلبية التي عرفها ذلك العصر. وسوف يتضح مدى التشوه في صورة تلك الحقبة من تاريخ المسلمين حين نتعرف على بعض الإنجازات الشامخة المضيئة التي تمت فيها.

الطعن في أخلاق أبناء المهاجرين والأنصار

ويصف الدكتور طه حسين أبناء المهاجرين والأنصار رضي الله عنهم "فيزعم أنهم هم الذين ذهبوا مذهب اللذة في مكة المكرمة والمدينة المنورة- حرسهما الله - وما تستتبعه من لعب وشرب وغناء وغزل". (١) وهو يطعن في ضمائر العلماء والفقهاء والمفسرين، فيزعم أنهم كانوا يكرهون مجون أبي نواس، لكن ليس بسبب كراهيتهم للمجون ذاته بل لأن: "مقامهم وصناعتهم كانت تضطرهم إلى هذا التحفظ". (٢) وهذا يعنى أنهم كانوا يعلنون غير ما يبطنون، وذلك هو خلق المنافقين، وكان طه حسين شق صدورههم وعلم بما تكنه قلوبهم فأعلنه! وأبعد من هذا، صور طه حسين مكة المكرمة، والحرم المكي الشريف، كساحة للغزل الماجن الفاسق، وفي مواسم الحج ذاتها. وصور نساء المسلمين الحاجات في صورة ساقطات باحثات عن العشاق! (٣) فيقول طه حسين: "فلم يكن ابن أبي ربيعة -الشاعر- يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامي للجمال. وكان إذا اقترب الموسم اتخذ أجمل ما كان يستطيع من زينة، وظهر في مظهر الفتوة والقوة، وفارق مكة، فتعرض للحجيج في طريق المدينة والشام والعراق، يتلمس نساءهم، ويتبين هواجسهم، ويعرض منها لما تظهر عليها آثار النعمة والترف، فإذا وافى الحجيج مكة وغيرها من مواضع المناسك، كان "عمر" قد أحصى النساء اللاتي يجب أن يكون بينه وبينهن لقاء أو حديث أو مكاتبة. وكانت له رسل تعمل في ذلك، فتأتيه المواعيد في مكة حيناً وفي منى حيناً آخر، وكانت أحب ساعات الدهر إليه أوائل الليل من أيام الموسم، حين ينتهز النساء فرصة الليل فيخرجن للطواف. هناك كان عمر بن أبي ربيعة يترصدهن، ومنهن من كانت ترصده، وهناك كانت تبتدئ الأحاديث لتتم بعيداً عن البيت". (٤)

(٢) نفسه، ج ٢ ص ٥٥.

(٤) الموضوع نفسه ص ٣٠٩.

(١) حديث الأربعاء، ج ١ ص ١٨ ط ١٢.

(٣) نفسه ج ١ ص ٣٠٩.

أبناء المهاجرين والأنصار: مجاهدون عظام

وقبل أن نورد شيئاً عن إنجازات أبناء المهاجرين والأنصار نستلفت الأنظار إلى أن طه حسين لم يأت بقائمة بأسماء المهاجرين والأنصار بل لم يذكر اسم واحد منهم، ولم يبين انتساب شاعر ماجن واحد إلى صحابي مهاجر أو أنصاري مدني، وكان عليه ككاتب استتجاز لنفسه تلك الاتهامات الفظيعة أن يقدم قائمة بالأسماء والأنساب يصل فيها كل فاجر وماجن بمهاجر أو أنصاري من أصحاب النبي ﷺ وهذا ما لم يفعله عميد الأدب العربي، وبذلك ينهار أساس آرائه لتصبح مقولات فارغة.

● والآن إليك أيها القارئ إشارات سريعة لإنجازات أبناء المهاجرين والأنصار.

(١) في عام ٦١هـ ثار الحسين بن علي - رضى الله عنهما - ضد الحكم الأموي الجائر الذي أحال الخلافة الراشدة إلى ملك وراثي عضوض، وكان مع الحسين آلاف من الثوار.

(٢) وفي العام نفسه خرج ثائر عظيم آخر من أبناء المهاجرين هو عبد الله بن الزبير - رضى الله عنهما - ضد يزيد بن معاوية، ومعه آلاف من المجاهدين من أبناء المهاجرين والأنصار من أهل مكة: "وعلا أمر ابن الزبير بمكة، وكاتبه أهل المدينة، وقال الناس: أما إذ هلك الحسين - عليه السلام - فليس أحد ينازع ابن الزبير". (١) وكاد ابن الزبير أن يطيح بملك بنى أمية ويعيد الخلافة الراشدة. ولم يكن بوسع قوم من المجان والفساق وأهل اللهو والعبث أن يقوموا في وجه الحكام المستبدين المتجبرين من بنى أمية. كان الحسين ورجاله أهل تقوى وورع، وأهل غيرة وشجاعة، فقاتلوا حتى آخر قطرة من دمايتهم، وكان الزبير ورجاله كذلك أهل صلاح ودين، وجسارة وشجاعة، وقاتلوا قتال الأبطال.

(٣) وثارت المدينة المنورة سنة ٦٣هـ ضد الحكم الأموي، وخلعت حاكمها عثمان بن محمد، كما خلعت الخليفة الظالم يزيد بن معاوية، وحاصرت من كان بالمدينة من بنى أمية. وكان قادة الثورة من أبناء المهاجرين والأنصار، وهم: عبد الرحمن بن زهير بن عوف (ابن عم عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه)،

(١) تاريخ الطبري؛ أحداث سنة ٦١هـ.

وعبد الله بن مطيع، ومعقل بن سنان الأشجعي، وكان أميرهم عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري. (١)

(٤) وفي عام ٩٢ هـ غزا الأندلس طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، ثم فتح المسلمون في العام نفسه مدينة طليطلة التي كانت من أعظم مدن الأندلس، وكانت تلك بداية إنشاء دولة إسلامية عظيمة في أوروبا.

(٥) وفي عام ٩٣ هـ غزا قتيبة بن مسلم "سمرقند" وافتتحها واندفع بعد ذلك شمالاً وشرقاً حتى بلغ سور الصين، وحقق انتصارات تشبه المعجزات.

هذه بعض الإنجازات العسكرية، الجهادية، الضخمة التي حققها أبناء المهاجرين والأنصار ومعهم المجاهدون. فهل كان يوسع قوم فساق فجار، أهل شرب وعبث ولهو أن يحققوا ذلك؟ أليس الأجدد بنا أن نقول بناءً على هذه الحقائق: إن ذلك العصر كان عصر جهاد وفتوحات لم يسبق لها مثيل في تاريخ العالم كله؟ بلى، كان ذلك العصر العظيم فريداً في هذه الناحية، وعلى الرغم من ذلك يجب على العالم الموضوعي ألا يغفل النواحي والظواهر السلبية التي كانت ملحوظة فيه. وقد أشرت تواتراً إلى جريمة بنى أمية الذين أحالوا نظام الخلافة الراشدة إلى ملك عضوض، وقد استحلوا في سبيل ذلك الظلم والبغى والرشوة وسفك الدماء. ومثل هذا حدث في العصر العباسي. وفي كل عصر ومصر كان هناك فساق وزناة وشاربو خمر وأهل عبث. وحتى عصر النبوة العظيم أقيمت فيه الحدود على زناة ولصوص وشاربي خمر، لكن هذه الحقيقة لا تسوغ بحال إنكار الإنجازات المعنوية والتربوية والأخلاقية والمادية لتلك العصور، والزعم بأنها كانت عصور عبث ومجون، لا لشيء سوى انحراف بعض الشعراء أو فساد بعض الحكام وبعض الأفراد. لكن طه حسين استساغ ذلك.

عصر علم وعلماء :

وفي العصرين الأموي والعباسي نشأت العلوم الإسلامية من تفسير وفقه وحديث وتوحيد وسيرة وتاريخ وأدب ولغة، فضلاً عن الترجمة، وازدهرت العلوم الرياضية، والطبيعية، وبدأت ترجمة الكتب اليونانية. وظهر الفقهاء العظام: مالك

(١) المرجع السابق؛ أحداث سنة ٦٣ هـ.

والشافعي وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل . ولا يسعني هنا ذكر أسماء أولئك الأعلام العظام في مجال علم واحد فقط كعلم الحديث مثلاً . فإذا اتخذنا منهج طه حسين الانتقائي الخاطيء خرجنا بوصف خاطيء لتلك الحقبة، فقال الباحث في الفقه: إنه عصر الفقه وتشكيل المذاهب الفقهية . وقال الباحث في الفلسفة: إنه عصر الترجمة عن اليونان . وقال الباحث في علوم الحديث إنه عصر الحديث وتدوينه وعلومه وعصر المحدثين العظام . وهذه كلها صور جانبية أو جزئية لا يجوز أن تحل محل الصورة الشاملة لكل الجوانب الإيجابية والسلبية . وكل منهج يتصدى لوصف عصر من العصور استناداً إلى صورة جزئية، هو منهج قاصر، وغير علمي، ومشوه للحقائق .

تفتيش الضمائر :

وينفى طه حسين عن الفقهاء والعلماء والمفسرين في عصر أبي نواس غيرتهم على الفضيلة، ويزعم أن كراهيتهم لمجونه لم تكن بسبب كراهيتهم للمجون ذاته، بل لأن وظائفهم ومراكزهم في المجتمع هي التي كانت تضطرهم إلى ذلك! وهذا الاتهام بالنفاق يطلقه طه حسين دون تحديد أو تخصيص لينال كل عالم ومفسر وفقهه . وهذا هو الدليل الساطع على خطئه الشنيع، إذ يستحيل أن يكون كل العلماء على امتداد قرون-وهم آلاف مؤلفة- منافقين يبطنون غير ما يظهرون! وليس لدى طه حسين أية قرينة على نفاق أى عالم مسلم في ذلك العصر؛ فهو يلقي اتهاماته جزافاً، ويشكك في ضمائرهم اعتباطاً .

ونحن لا ننكر أن من العلماء من كان ينافق الحكام في تلك العصور، فهذه هي طبيعة البشر، أن يكون من بينهم المخلصون الشجعان، وأن يكون منهم المنافقون المدعون الذين لاتهمهم إلا مصالحهم فحسب . لكن هذه الحقيقة لا تعطى أى باحث الحق في اتهام الجميع بالنفاق والرياء، وتجريد كل العلماء من الإخلاص والشجاعة الأدبية والغيرة على الفضيلة والإنكار على الجمان والفساق والعايئين وإن كانوا من الحكام والأمراء، كأنه شق صدورهم واطلع على ضمائرهم فرداً فرداً، فوجدهم جميعاً منافقين لا يكرهون المجون بحق، بل لأن مقامهم في المجتمع كان يضطرهم إلى ذلك !

وبوسعنا أن نورد عشرات الأمثلة لأولئك العلماء الأفاضل الشجعان الذين أخلصوا دينهم لله، وتصدوا للحكام الظلمة، وتعرضوا لبطشهم وظلمهم . وأظن أن

مأساة الإمام أحمد بن حنبل على يدي الخليفة العباسي الظالم "المعتصم" المعتزلي،
أتمودجاً للعالم الشجاع الذي لا يداهن ولا يساوم ولا يخشى في الحق لومة لائم. ولقد
عذبه "المعتصم" الذي كان يقف على رأس الجلادين يأمرهم بضربه بالسياط ويقول في
غضب: "شد! قطع الله يدك!" ومكث الإمام في الحبس والضرب والإهانة ثمانية
وعشرين شهراً، ثم نفاه "الواثق" بعد توليه الحكم. وبعد موت "الواثق" تولى
"المتوكل" ورفع الحظر عن الإمام العظيم، بل حاول جاهداً أن يتقرب إلى الإمام، فرفض
الإمام ضيافته بإصرار، ولم يأكل على المائدة التي أعدها له، وأبى قبول المال الذي بعثه
إليه.

فهل هذا الإمام المجاهد العظيم منافق يبطن غير ما يعلن كما زعم طه حسين؟!!

وكان الإمام مالك بن أنس: "ينقم على الخليفة المنصور العباسي جبروته
وطغيانه، ولهذا كان يأتيه أهل المدينة يستفتونه في الخروج "أى الثورة" مع محمد
المعروف- بالنفس الذكية- ويقولون إن في أعناقهم بيعة لأبى جعفر المنصور (الخليفة
العباسي) فيقول: "إنما بايعتم مكرهين، وليس على مكره يمين." (١) فالبيعة كما أفتى
مالك يجب أن تكون حرة وإلا فهي ليست بيعة. وكان "جعفر بن سليمان بن علي"
والياً على المدينة من قبل الخليفة المنصور سنة ١٤٦هـ، فأرسل إلى الإمام مالك
وقال: "أنت الذي يفتى في الإكراه وإبطال البيعة؟" فجرده من ملابسه وضربه مائة
سوط حتى خلع كتفه، وظل الإمام حتى وافته المنية وهو لا يقدر على أن يزر زرة بيده
اليسرى من آثار شدة الضرب. (٢)

صور خرافية:

والآن نعود إلى الصور الخرافية التي صورها طه حسين للمحسسات العفيفات من
نساء المسلمين اللاتي قطعن مئات الأميال على ظهور الجمال ابتغاء أداء فريضة الحج.
إنهن في خيال طه حسين لم يقطعن الفياض والقفار للحج! كلا إنهن فعلمن ذلك لكى

(١) تاريخ الطبرى؛ ج٩ ص ٢٠٦.

(٢) مناقب الشافعى لابن أبى حاتم الرازى؛ ص ٢٠٤. مكتبة التراث الإسلامى، سوريا، حلب، دون

تاريخ.

يفزن بالعاشق الخرفاى الشاعر ابن أبى ربيعة! ونحن نعلم أن كل امرأة تحج معها محرم، والحكمة من وراء ذلك صون النساء عن أطماع الفجار والفساق فى خلاء الطريق. ولكن طه حسين يتجاهل ذلك، فيصور الآباء والأشقاء والأزواج الذين يرافقون أهلهم فى صورة القوادين! فالزوج ديوث، والأب ديوث والأخ ديوث، يقدم أهله هدية لعمر ابن أبى ربيعة، يتفحصهن، وينتقى ما طاب له منهن لكى يقابلهن بعد ذلك فى الطواف.. أجل فى الطواف.. فى الطواف!!! ثم يتفق معهن على أن يتم الحديث بعيداً عن الحرم!!! وبعض الحاجات كن يتربصن ذلك العاشق الخرفاى العجيب! فلم يكن هناك رجال شرفاء، أَعفَاء، أهل غيرة وحمية، مع أولئك الحاجات، ولم يكن هناك عشاق سوى ذلك الرجل الخرفاى المدعو عمر بن أبى ربيعة!!

ولم تكن لبيت الله الحرام كرامة عند أولئك النسوة الساقطات، ولا عند محارمهن من الرجال الساقطين! لقد صارت مكة كلها والحرم كله، و"منى" و"عرفات" و"مزدلفة" كل تلك الأماكن المقدسة مستباحة لعمر بن أبى ربيعة. برضا رجال المسلمين وموافقتهم!

هذه هى سلسلة الأخطاء المتوالية التى ذهب إليها خيال طه حسين المريض الجامح، وهذا هو العلم الموضوعى الذى أنتجه منهج الشك الديكارتى! وهو كما ترى صورة لنساء فرنسا ورجالها أسقطها الكاتب على نساء المسلمين، استناداً إلى كتاب الأغاني للأصفهاني، الذى يقرر طه حسين نفسه أنه ليس المصدر الذى يعتمد عليه.^(١) أما المصادر الأخرى المحترمة فتقول شيئاً آخر يناقض هذا الخيال. فلقد وقف الخلفاء بالمرصاد للشعراء المجان الذين قالوا أبياتاً - ولم يمارسوا أفعالاً - وذكروا فيها الجميلات من الحاجات اللاتى كشفن وجوههن فى أثناء الطواف. فنفى عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - "الأحوص" الشاعر، وكاد عمر بن أبى ربيعة أن يلقي المصير نفسه لولا أنه أقسم أغلظ الأيمان ألا يعود إلى ذلك الشعر المسف القبيح. أما أن يقترب رجل غريب من هودج النساء فى الطريق فتلك - لعمر الحق - تطير فيها الرؤوس وتسفك فيها الدماء! وإذا كانت بعض الأبيات التى تمس كرامة الحرم الشريف قد أدت "بالأحوص" إلى المنفى، فماذا كان يكون مصير عمر بن أبى ربيعة وصبيانه

(١) حديث الأربعاء، ج ١ ص ١٩١.

لو أنهم تعرضوا للنساء فى القوافل أو احتكوا بهن فى الطواف، أو فى "منى"؟! لم يحاول طه حسين أن يطرح مثل هذا السؤال، ولو أنه طرحه لظهرت الحقيقة، وبددت كل الخيالات المريضة!

والسؤال الآن هو: لماذا فعل طه حسين ما فعل؟ وما الغاية من وراء تلك الخيالات الجامحة؟ نحن لم نطلع على ضمير الرجل ولم نفتش فى قلبه، وهو لم يعلن عن غايته بنفسه، فلا يبقى لنا إلا التخمين استناداً إلى كلامه، وإلى مواقفه المعروفة المعلنة. فهو قد أعلن أن علينا أن نتبع الغرب وثقافته ونظمه. (١) وهو يسعى إلى إقناع الشعوب المسلمة بالتخلي عن ثقافتها وإحلال الثقافة الأوروبية محلها، ومن أجل هذا الغرض لا بد أن يهون من قيمة ثقافتنا، وأن يعلى من قيمة الثقافة الأوروبية "بخيرها وشرها" كما قال هو نفسه فى كتابه "مستقبل الثقافة فى مصر". وفى ضوء هذه الحقائق يمكن أن نفهم غايته من الطعن فى أبناء المهاجرين والأنصار واتهامه لعلماء الإسلام، وتشويه صورة الحرم المكى الشريف وإسقاط كرامته، والتحقير من أخلاق ضيوفه من الحجاج، فهذا كله يصب فى خانة الثقافة البديلة التى يراد لنا أن نتخذها، ونحن لن نتخذها إلا إذا نبذنا ثقافتنا، ونحن لن نبذ ثقافتنا إلا إذا اقتنعنا بأنها ثقافة كلامية لفظية لا تنتج أثراً ذا بال فى السلوك الفردى والاجتماعى، فالعلماء والفقهاء والمفسرون منافقون، وأبناء المهاجرين والأنصار أهل عبث وفسق ومجون، وحجاج بيت الله زناة وزانيات يمارسون الفحشاء فى مكة نفسها ويأتون من أطراف الأرض وأقاصيها بغية مقارفة الرذيلة والفحشاء مع عمر بن أبى ربيعة!

● هذا ما أرى أنه الغاية من وراء خيالات طه حسين الجامحة التى عرضت لها هنا. وقد أكون مخطئاً، فهل من باحث محب لطه حسين أن يتناول الموضوع ويبين لنا الخطأ؟ إنا لمنتظرون، والله تعالى من وراء القصد.

* * *

(١) انظر كتابه: مستقبل الثقافة فى مصر.